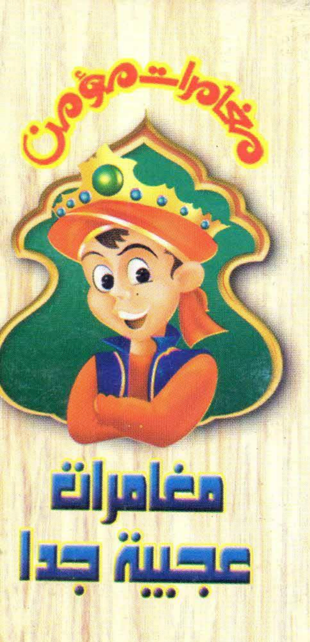

مغامرات مؤمن
جوهرة
76
الزلزال الرهيب
علاء الدين طعيمة
دار الدعوة



- سلسلة مليئة بالإثارة والتشو
- أغـــرب الرحــــلات والمفارق
- تجمــع بين المتعــة والمعــرف
- لاغنى عنها في الرحلات والبيت والمواص

دار الدعوة

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفاكس: ٣٩٠١٩١٤ – ٣٩٠٧٩٩٨/٠٣

مغامرات عجيبة جداً
[٧٦]

جوهرة الزلزال الرهيب

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع القانونى: ٢١٩٩٧/٢٠٠٦م
الترقيم الدولى: 8 - 411 - 253 - 977

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

تليفون المؤلف: ٠١٢/٢٧٨٢٩٦٤ - ٠٢/٤٢٦٢٩٨٠

مغامرات مؤمن

جوهرة الزلزال الرهيب

تأليف:
علاء الدين طعيمة

رسوم
عبد الرحمن بكر

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

مغامرات عجيبة جداً..

قمة الفرح أن يعثر الإنسان على تاج أثرى عتيق خال من الجواهر، ولكن تكون قمة الإثارة والمتعة عندما تتابع وتقرأ مغامرات ذلك البطل وهو يسعى للعثور على جواهر هذا التاج، إنه يسافر فى رحلات عجيبة عبر البحار والأنهار، فيتعرض للأخطار والأهوال ويرى نماذج غريبة من البشر وعجائب من الإنس والجن والأحياء والأموات، وفى كل مغامرة - بعد العناء والصراع مع المكان والزمان- يفلح فى إضافة جوهرة جديدة إلى التاج.

كلا إذا دكت الأرض دكًا دكًا... إذا زلزلت الأرض زلزالها... قل ينسفها ربي نسفا... إذا رجت الأرض رجا... يوم ترجف الأرض والجبال... هذا هو تصوير القرآن الكريم لحالة الأرض بما عليها من جبال يوم القيامة: الزلزال... الدك... الرجف.. النسف.. ولا يخفى على كثير منا حالة الرعب والقلق الشديد إذا حدث وشعرنا بزلزال، كما أن الشعور بالزلزال يختلف من كائن لآخر ومن شخص لآخر.. فكم من أشخاص شعروا بهزة مع أن المحيطين بهم لا يدركونها.. ثم ما يلبث أن تذيع الأخبار نبأ حدوث زلزال في بلد بعيد بعدًا يزيد على آلاف الكيلومترات.. وتشعر الحيوانات الأليفة وبعض البهائم بالزلزال قبل حدوثه بدقائق.. فإذا

فوجئت بأن القطط تجرى مجتمعة إلى صوب جهة بعينها.. وصهلت الخيول وفرت الكلاب فاعلم بأن زلزالا وشيكًا سيأتى بعد دقائق.

وتسمع أرقامًا بعد حدوث الزلزال تقيس قوته بوحدة تسمى الريختر، وكلما زادت القوة زادت الخسائر فى الأرواح والمنشآت.

والزلزال لا يصف كتعبير أو ككلمة ما يحدث فى الأرض فقط من تحركات أو انزلاقات تسبب الهزة والتصدع، بل هى كلمة قد تصف أى شىء يصاب فجأة بخلل يزعزع أمنه واستقراره وقد تصف إنسانًا أصابته مصيبة بأن زلزالا أصاب قلبه وحطم أوصال عواطفه... أو تصف تجارة أو اقتصاداً مُنى بخسائر زلزلزت دعائمه وتركته مثل مدينة أو قرية تهدمت... لذلك تجد كلمة

زلزال تعنى الرج الشديد والرجف العنيف والتحطيم، وقد يصاب البناء البشرى فى أمة من الأمم بزلزال الأخلاق والقيم والأعراف والتقاليد.. فلو كان أمر إعادة إعمار المدن فى حاجة بعد زلزال عنيف إلى وقت وجهد كبيرين وإلى مال وعتاد وإرادة فإن زلزال القيم والأعراف يحتاج لإعادة إعمار إلى مشقة وجهد كبيرين وعزيمة تفوق إعمار المدن وبناء الكبارى والمنشآت.

مرت الأرض عبر تاريخها الطويل بكوارث كونية، كالشهب التى ضربتها من الفضاء والبراكين التى انفجرت من أعماقها والزلازل التى غيرت معالم سطحها.

فقد قيل إن جميع قارات العالم فى زمن سحيق لم يكن يفصلها عن بعضها بحر ولا محيط... كانت

الأرض كتلة واحدة من اليابسة تسبح فى محيط هائل من الماء.

حدث زلزال رهيب... زلزال فاق كل ما يمكن للبشر أن يتخيله، صدع الأرض تصديعًا وكسرها تكسيراً... وكأنك تمسك بين يديك قطعة من كعك العيد وتضعها فى طبق ملىء باللبن ومن ثم تضربها ضربة بالملعقة فتتكسر وتتوزع أجزاؤها بفعل الضربة فى جميع أنحاء طبق اللبن.

هكذا تحركت أجزاء الأرض وابتعدت عن بعضها البعض وحل الماء فى الفراغ الناشئ بين هذه الأجزاء... فلو نظرت على سبيل المثال إلى قارتى آسيا وأفريقيا.. ستجد أنك لو سحبت الماء من البحر الأحمر وضيقت المسافة لانطبقت الحدود تمامًا، ولولا النحر البحرى الذى

يعمل على تآكل الشواطئ عبر الأزمان الطويلة لكانت حدود القارات منطبقة على بعضها تماما.

ويقول العلم إن الزلازل تحدث فى طبقة تسمى «القشرة الأرضية» وهى طبقة تغلف الأرض.. صخرية.. عبارة عن صفائح يعلو بعضها البعض عندما تنزلق صفيحة فوق الأخرى.. تحدث تحركًا أرضيًا فى القشرة وعلى القشرة يعيش الناس.. وفيها يغرسون بيوتهم ونواطح السحاب.. ويزرعون سطحها ويرصفون فوقها الطرق ويقيمون أرجاء الحياة المختلفة، فإذا اهتزت وارتجت فهذا كفيل بتدمير كل ما تحتويه هذه القشرة.. حسب قوة الهزة، وإذا أردت أن تجرِّب ذلك.. فقم بوضع أكواب وزجاجات فوق منضدة خفيفة ثم قم بهز المنضدة.. وسترى ما سيحدث، لكن الأمر يوم القيامة يختلف بالنسبة للقوة، لأن الله تعالى أراد

للأرض كلها أن تتزلزل.. حتى أنه من قوة وشدة هذا الزلزال تنفجر الجبال وتنسف.. ولأن الجبال هى أوتاد الأرض. أى هى التى تحافظ على توازن الأرض أثناء دورانها فى الفضاء فلا تميد ولا تنحرف.

فلما تزال وتنسف يختل النظام تمامًا.. ويرتبك الأمر وتهتز الأرض ويزداد الزلزال.. حتى لا يبقى منها قلب كائن قادر على تحمل الأمر فيهلك. فنعوذ بالله تعالى من أهوال ذلك اليوم، ولا تنس أننا خُلقنا من الأرض أى من ترابها.. وننتمى إليها، وكل ما يجرى عليها يصيبنا ويؤثر فينا.

ما علينا.. بل ما يهم الآن أيها القارئ العزيز.. يا مَن أشعر برغبة شديدة فى إسعادك وإمتاعك.. أن نبدأ فى المغامرة.

قصة مؤمن مع الزلزال الرهيب.. فهـو مازال مستمراً في البـحـث عن جـواهر النجـاح... ويـخـرج من بلاده وأوطانه سـعـيًـا خلف جـوهرة جـديدة في كل مـرة... لذلك أصـبـحت الأرض كلهـا وطنا لـه... يتـقلب بين رهادها وشعـابها وتفاجـئه عجـائبها بين الحـين والآخر فيظل منبهراً مندهشًا.

في هذه المغامـرة... بدأ مؤمن يمـسك الورقة والقلم ليدون بدلا من أن يحكي مذكراته حسب نصيحة حصل عليهـا من أحد رفاقه ذات مـرة... أن ما يمر به يسـتحق التدوين ليصبح تاريخًا فيما بعد يُستفاد منه.

ونحن سنـجلس فـوق القلـم ونهـتـز مـع الحـروف والكلمـات ونقـرأ لحظة بلحظة مـا يكتـبه هذا المـغامـر الصغير، فتعال معي نركب القلم... قلم مؤمن.. !!

أمرُّ الآن مبتعداً جهة الغـرب البعيد بصحراء تختلف في شكلهـا عن الصـحـراء المصـرية... أو الأفريقـيـة... التـربة هنا صـحـراء... الصحـراء ليـست قـاحلة... بل تعيش فيها أنواع من نباتات الـصبار الشائكة والكثير من الحشرات والزواحف... والشمس هنا حـارقة.. والتباب والتلال الـصلبة كثـيرة... فـلا يمكنك بسهـولة أن ترى الأفق البعيد إلا إذا ارتقـيت أعلى تل منها... أكاد أصل إلى بغـيتى علـى كل حال... أنا قـاصـد فى نهاية الأمـر مـيناء سأعـبـر منه إلى قارة أخـرى... ولكن أمـامى كى أقطع هـذه الصـــحـــراء يومًـــا آخـــر... أوشكـت على الوصول.

ها أنا الآن والليل يدنو منـى وتغرب الشـمس رويدا رويدا فى حاجة للراحـة... على عادتى الدائمة... أربط

الحصان فى جذع شجرة ثم أوقد نارا فى حطب وأحمل كثيراً من الرماد فأصنع به دائرة حولى أنا والحصان حتى لا تقترب منا الهوام الخطرة أو الحشرات المزعجة.

لا أدرى ما حدث عندما غابت الشمس، غير أن رأسى أصبحت ثقيلة وارتخى جفناى ورحت فى سبات عميق بسبب التعب والسفر وقلة الأمان فى الاغتراب عن الأهل والأحباب.

ماذا حدث بعد ذلك.. كنت نائمًا عندما سمعت الحصان يصهل صهيلا حادا... هل كنت أحلم أم هى حقيقة؟ أحيانا من شدة التعب والغياب فى أعماق النوم يفقد المرء الشعور بالخطر وإن دنا منه... وقد يستسلم لكل مصيبة تجرى، لأنه فى النوم يكون أمره أقرب للموت منه إلى الحياة.

هل كانت حوافر الحصان تضرب الأرض بتلك القوة العنيفة المتتالية أم أن هناك حركة تحدث حولى.

لكن يخدعك النوم أحيانا... فمن يركب شيئًا ويسافر على متنه فترة طويلة... إذا نام بعد ذلك على فراش ثابت يظل شىء ما يخدعه ويهيئ له أن مازال راكبًا ويشعر كأن جسده يهتز على إيقاع ما كان يركبه قبل النوم.. كنت راكبًا حصانى منذ عدة أيام.. وللحصان نغمة تهتز كل قطعة من جسمك لها وهو يتهادى بك، ويزيد ذلك كلما جرى وركض.

هل كنت ضحية لهذا الشعور المخادع؟ أم أن الفراش يهتز تحتى.. ثم.. ثم أنا لم أكن نائمًا على فراش... بل على الأرض.. ليس بينى وبين ترابها سوى بساط خفيف أحمله لهذا الغرض دائمًا.

هذه الأشيـاء عامة يتناسـاها المرء عندما يستـيقظ فى الصبـاح ويجد الدنـيا كـمـا هى.. الغـرفة كـمـا هى.. والأشيـاء من حوله مـتجـمدة على الوضع الذى تركـها عليه قبل غيابه فى الموتة الصغرى.. أى النوم.

لكن لا يمكن أن يتناسى شـيئًا ولا أن يهـمل شيـئًا مما جرى بالليل، إذ نهض فى الصباح فلم يجد الأمور كـما كـانت على حـالها قـبل النوم.. أن تنهض وقـد كنت فى البيت وحدك ومـتأكد من أن أحدًا لم يدخل بيتك أثناء نـومك.. فـوجـدت الأشـيـاء ليـست فى مكانها.. تغـيرت أوضاعهـا فتسـأل نفسك: من الذى حـركهـا.. من الذى سبب هذه الفـوضى؟ أنت واثق أنك كنت وحدك.. ولـم يدخل إلى حجرتك إنسان.. فـتـعيـد إلى ذهنك كل مـا شـعـرت به أثناء نومك..

لتدرك أن الأحاسيس كلها ليست خدعة.. وأن الأرض كلها حدث لها أمر مريع.

هذا ما رأيته فى الصباح.. رأيت التلال ليست فى مكانها.. والصخور فى أماكن ليست كالتى كانت عليها قبل نومى.. وكل شىء مبعثر.. والأشجار محطمة.. والتلال الجافة قد نُسِفَت كأن هراوة عملاقة هوت عليهم الواحد تلو الآخر.

لم أمر بشىء مثل هذا من قبل... قمت أنظر لحصانى.. كان هادئًا لا شىء يعكر صفوه.. من الذى سبب كل هذه الفوضى.. أعدت لنفسى السؤال.. ولم يأت على خاطرى أبدا أن الأرض -وأنا نائم بالليل وحدى فى هذه البيداء- قد حدث لها.. زلزال.

أن ترى الأمر يحدث لك أو أمام عينيك يكون شيئًا مختلفا عما إذا حكى لك أو كنت غائبًا عنه.

لم يؤثر فيَّ الأمر ولا فى مشاعرى بقدر ما أثر فى رحلتى كلها بعد ذلك... هذا الطريق مررت به عدة مرات قبل ذلك فى مغامرات لى سابقة حتى حفظت معالمه، وعليها كنت أسير وبها أهتدى حتى أصل إلى الميناء.. بقى لى يوم واحد.. وسأصل الميناء قبيل الغروب.. أو عند الظهر إذا أبليت بلاءً حسنًا فى قطع الطريق.. وأسرعت.

عند العصر... بالرغم من أننى كنت أركض بالحصان... شعور بداخلى يخبرنى أننى لا أسير على هدى... لم أصل إلى الميناء... لم أر أى شىء يدل على أن البحر قريب أو أن حياة ترقد خلف أى تلال.. لم أصل إلى شىء... مازلت تائهًا فى الصحراء.

يا إلهي.. كم أكره أن أضل طريقي في صحراء... كم عانيت من قبل في مثل هذه الأهوال... عليّ أن أنتظر حتى يدخل الليل ثم أهتدي بالنجوم.. ما الذي جرى... أحاول أن أصل حسب إحساسي الخاص.. لكني لا أصل.. أجهدت الحصان من كثرة الركض.

بالليل جلست أنتظر أن تسطع النجوم في السماء لأعرف طريقي... السماء ملبدة بغيوم.. حتى القمر لا أراه... يا ربي.. طوال ساعات وأنا قابع مكاني كالعابد ينتظر استجابة السماء.. لا شيء.

نمت مرة أخرى وليلة جديدة كُتِبَت لي في الصحراء... بالنهار عزمت على معرفة الحقيقة بالبحث عن جبل عال... فوق قمته سأعرف أين أنا من الميناء

وهذه الطريقة تعتبر من الطرق المتعارف عليها لاستكشاف الطرق فى الصحراء.

بقيت أسير حتى إلى ما بعد الظهيرة.. إما الطريق وإما الجبل. لمحت فى نهاية الأفق خيالا كأنه ضباب.. أعلم أن هذا المشهد يعنى الجبل.. لكنه بعيد للغاية.. عذراً أيها الحصان.. أنت الذى سيتحمل عنى عناء هذا المشوار.

إلى ما بعد العصر وأنا أسعى للقاء هذا الجبل الشاهق الذى كلما اقتربت منه ابتعد عنى.. ونسيت رحلتى الأصلية، وأصبح كل هدفى أن أصل إلى الجبل.. فالجبال الشاهقة يمكنك من فوقها رؤية مساحة كبيرة من الأرض.. بان لى ذلك مرة عندما صعدت فوق جبل موسى بصحراء شبه جزيرة سيناء بمصر بلدى.. فرأيت البحر الأحمر يحيط سيناء بذراعيه إحاطة كاملة.

عند الغروب وصلت إلى سفحه... وهدأت نفسى مع حماس جديد وأنا أنظر لقمته الشاهقة وأعد نفسى لتسلقه من أجلها.

ولما قررت الراحة تحت حتى الصباح ليكون ضوء النهار معينًا لى فى رحلتى إلى أعلى.. خلتُ صوتًا أتى من بعيد.

لم أعر الأمر انتباهًا، خاصة وأن الأماكن التى أزورها لأول مرة لها عادات لم آلفها من قبل.. فبعض الكهوف إذا اقتحمتها الرياح أصدرت أصواتا غريبة، كما أن الوحوش التى تعمر الصحراء لابد أن تعبر عن نفسها. زاد إحساسى بالصوت، الرياح تحمل نغمًا خاصًا.. ثم تلقيه بعيدًا عن أذنى... صمت الليل فجأة يلمع بوهج صاخب لا يلبث أن ينطفئ ماذا هناك.. شيئًا فشيئًا..

أدركت أن هذه الأصوات.. إنما هي عـزف موسيقى مع صخب.. هناك.. هناك خلف الجبل حياة.. أقسم على ذلك.. أشعر بالإنسان وكأنى أشم عرقه وأحس أنفاسه إذا كنت وحيداً هكذا.. يا لهذه المغامرات وما تحمله لى من مفاجآت.

حاولت النوم فلم أقدر.. فضولى العنيد لا يبرحنى لحظة فى عمرى... كل الناس يهاب الموت... إلا أنا.. بسبب هذا الفضول.. هذا الفضول أقوى شيء فىّ أنا.. فسوف أقوم وأبحث حول هذا الجبل الكبير لأرى من أى مكان يأتى الصوت.

سحبت حصانى ولم أركبه.. وسرت أدور حول الجبل... فإذا من خلفه يطل على منخفض كبير فى وسط سهله قرية أو مدينة.. لا أتبين جيدا.. سوى أن

أنوارها ومشاعلها الكثيرة تتوزع على مبان كثيرة عالية ومنبسطة بطريقة مرحة تبعث على البهجة وتشعرك أنك مقدم على حياة سعيدة.

مالى والجبل الآن؟ سأذهب إليهم وسيخبروننى عن الطريق الصحيح للميناء.. كما أننى سعيد الحظ أن أعثر على قرية أو مدينة.

هبطت معتليا الحصان واقتربت فإذا هى مدينة عامرة.. فيها حياة رغدة وأحوال الناس فيها تنم عن البهجة وراحة البال.

لم يمنعنى أو يسألنى أحد وأنا أعبر بوابة المدينة الكبيرة... الشوارع مكتظة بالناس.. المقاهى فوق ما أتخيل هنا وهناك.

أعبر الشوارع المضاءة بكثافة كأن أهلها من حبهم للنهار جعلوا المدينة نهارا فى الليل.

إن هناك رغبة لديهم جعلت الزهور الأقحوانية البيضاء والبنفسجية تزين كل جدار وشرفة ونافذة.. وأزهار بلدية بألوان زاهية تبدد السأم والملل فتحيل الأجواء إلى نشاط مستمر.. شعرت أنهم يستمدون المرح من هذه الأجواء.. فهم يجعلون شوارعهم محببة بنظافة دقيقة وورود وزروع فى كل مكان، ولا يتركون جداراً بلا طلاء.. لكنى مع انبهارى بكل هذا لاحظت أمرا محيرا... نساؤهم وبناتهم يفقن الرجال والشباب عددا.. كلما مرت عينى بحى أرى النساء أو البنات، ثم أتعب بحثًا عن رجل أو ثلاثة وسط ثلة من النساء.

تعجبت وظننت نفسى لأول وهلة أن الحرب قد تسحب من القرى والمدن عددا كبيرا من الشباب والرجال.. لكن لا يبدو أن هؤلاء فى حرب... لم يشغلنى الأمر كثيراً وأنا أبحث عن مكان أبيت فيه وأسأل أهله عن طريقى إلى الميناء.

وصلت بلا قصد إلى شارع على ناصيته لافتة: «فندق»، دخلت الفندق النظيف إلى حد الإعجاب.. حتى ارتاحت نفسى وأنا أرى مصحفًا بيد السيدة صاحبة الفندق وكانت ترتدى حجابًا على رأسها.

- السلام عليكم سيدتى... هل أجد غرفة حتى الصباح.

- بكل سرور يا ولدى...

أخبرتنى بسعر المبيت فى الغرفة وسعر وجبة العشاء والفطور، وأعطتنى تعليمات روتينية للمستخدم الجديد.

لما رأيت الفراش ولون الملاءة الأبيض المشدود والوسادة الحريرية الوثيرة والمرتبة التى غُصتُ فيها لما ألقيت جسدى عليها، ومع كل ما حولى من نظافة تقززت من نفسى وأنا أحمل عرق السفر وترابه ووسخ الطريق وغباره.. دخلت الحمام وفى حوض كبير من الخشب ملأته لى السيدة بالماء الدافئ والصابون غسلت جسدى وهمومى وارتديت ملابس نومى التى أحملها معى طوال الرحلة والتى لم أستعملها من قبل. ولما وضعت نفسى على الفراش نمتُ نومًا عجيبًا كنت أشعر بمدى قوته وسطوته قبل الغياب عن الوعى بثوان.

متى نمت وكيف وهل شعرت تلك الليلة بزمن نومى. أبدا فوجئت فى الصباح بالسيدة تقرع الباب

حاملة وجبة الفطور، وتمنيت لو تركتنى نائمًا.. لكنها عادة توقظ الناس فى الصباح للفطور وتدعهم بعد ذلك إما أن ينهضوا أو يعودوا للنوم.

الصباح الباكر جميل.. الهواء نظيف.. الشوارع الجميلة جذبتنى وأنا أحمل بيدى كوب اللبن لأخرج إلى الشرفة وأتفرج عليها.

كنت سعيداً بهذه المدينة، وتمنيت لو أن بلادنا تصبح فى بهائها وجمالها.. استندت إلى جدار الشرفة.. شعرت أن كوب اللبن يهتز بيدى.. لا أشعر بشىء، نظرت إلى الغرفة وأنا مازلت فى الشرفة.. أحسست أن كل شىء غير مستقر فى مكانه.. حتى الفراش أصبح يرتج مكانه.. ما هذا؟

كانت الشوارع خالية من الناس فلم يستيقظوا حتى هذه الساعة.. أما الشرفة فكأنها تريد الانفصال عن المبنى.. لم أسمع صراخًا ولا استغاثة.. ثم هدأ كل شيء وكأن شيئًا لم يكن. السيدة صاحبة الفندق تشبه أمي كثيرًا وفي مثل عمرها.. دخلت مطعم الفندق وكانت تتابعني بنظراتها من بعيد في حين تعمل في المطعم أربع بنات متبرجات، فلما وضعن أمامي ما لذ وطاب من طعام الغداء.. ابتسمت لشبيهة أمي فجاءت: أيضايقك أن أتناول الغداء معك؟

أبدًا بكل سرور.. هاهاها.. ظننت أن كل هذا الطعام لي وحدي. ضحكت السيدة وأكدت أنها ستطلب طعامها حالاً.

ظلت تسـألنى عن عـمـرى وكلمـا أكـدت لهـا أننى مازلت غلاما لم أبلغ الحلم بعدُ تقذفنى بنظرات تكذيب مرحـة.. حكيت لها عن بعض مـغامـراتى.. ومن الحين والآخــر تســألنى عن سـنى، فلمــا ألحت فى تكـذيبى واجـهتـهـا: لماذا سـيدتى تـكذبيننى.. ولماذا تسـألين عن عمرى بهذه الطريقة؟

قـالت وأمل يطـل من عـينيـهـا: مـا رأيـك فى بناتى الأربع.. هل هن جميلات؟

بالطبع.. ولكنهن سيدتى.. متبرجات بشكل ملفت .

هل أعجبتك واحدة؟

لماذا يا سيــدتى.. مـاذا هناك.. أنا لا أفــهـم.. وأريد تناول طعامى بهـدوء. معذرة يا ولدى.. فى الحقيـقة لقد ارتحت إليك وأريد أن أزوجك إحدى بناتى. انحـشرت



اللقمة فى فمى وأنا أكتم الضحك.. ثم انفجرت ضاحكا وأقسمت لها بكل أيمان أننى صغير على مثل هذه الأمور.. فلما يأست منى غادرتنى حانقة.. غادرت الفندق للسياحة فى المدينة التى أعجبتنى ومازالت تصرفات صاحبة الفندق على ذهنى بين الحين والآخر.. ومع ذلك فقد واجهت ما هو أعجب من ذلك.. كان الليل يحجبنى عن العيون أما فى النهار فقد قاسيت خلاله الأمرين.. كلما دخلت حانوتا أو جلست فى مقهى تحدث إلىَّ رجل عن بناته.. وطلب منى أن أتزوج آحداهن.. بدأت أتوقف عن مناقشة الناس فى هذا الأمر.. اكتفيت بالأنصراف من كل مكان بلا حوار.. ماذا يرون فىّ؛ أم أننى بت لا أعرف

نفسى.. مـا الذى يدفع الناس لهـذا الجنون؟.. غلام لا يعـرفـونه من قبـل.. وأتى على خـوف بالليل من بلاد لايعرفونها.. ثم كلما سألت أحدهم عن شىء حدثنى عن بناتـه وأراد بكل سـهـولة أن أصـاهره.. يا لـهـذه المدينة.

بعـد صلاة العـصر حـرصت أن أخـرج من المسجـد مـسرعًـا.. قـابلنى سوق يبـيع الملابس.. وفى الحـقـيقـة ملابس هؤلاء الـناس تتميـز بأناقة جـذابة.. جاءت فـتاة نحوى وأنا أقف أمام سروال أعجبنى.. كانت تنظر لى.. ثم جاءت ثانية وثالثة.. كنَّ فى الحقيـقة فاقدات الحياء.. هل يبـــدو منظرى جـــذابا إلى هذا الحـد؟.. ومـــا الذى أحمـله ويجذب الناس لى ولا يوجـد فى شبـاب المدينة ورجالها؟

أصبحن أكثر من خمس فتيات.. كلما تحركتُ تحركن معى.. كلما سرتُ سرن خلفى.. وبدأ العدد يزداد.. شعرت بفزع ممزوج بحسرة أن يكون هذا حال بنات مسلمات.. وازعٌ من قدمىّ جعلنى أجرى.. فأخذن بالجرى خلفى وأنا أكاد أصعق من الدهشة.. هن جميلات بحق.. لكن أنا أصبحت كالمجنون يجرى فى الشوارع والبنات يتبعنه.. لا بد أن فى منظرى شيئًا يضحكهن منى.. دخلت الفندق وأغلقت على نفسى غرفتى وأسرعت إلى النافذة فرأيتهن متجمعات أمام باب الفندق وخرجت لهن السيدة الوقور وتكلمت مع بعضهن فانصرفن آسفات. لم أشأ الخروج من الغرفة.. وقفت أمام المرآة ساعة.. أفحص وجهى وأتفحص هيئتى.. ماذا

هناك؟.. ماذا بى ؟.. أنا هو، أنا لم أزد أو أنقص شيئًا يا خلق الله..!!

جلستُ على فراشى حتى الليل أفكر فيما يحدث... حتى دخلت السيدة بطعام العشاء فادعيت النوم حتى لا تثير حديث الصباح المزعج.. وضعتْ الطعام وانصرفتْ.. جلستُ أتناول عشائى وبين الحين والآخر تصدر منى ضحكة بسبب جنون أهل هذه المدينة. وبعد العشاء حدثت هزة أخرى.. كانت أقوى من الهزة الصباحية.. ترجرج الفندق كله.. حتى أن صينية الأطباق وقعت من فوق المقعد.. جريت وأنا فى قلق وتوتر لأشارك الناس فجعتهم هذه.. لم أسمع صراخًا ولا أى شىء حتى توقف الهز وكأن شيئًا لم يكن. يبدو أن هؤلاء الناس قد اعتادوا هذه الهزات فلم يعودوا

يأبهون لهـا.. يا لهم من شجـعان.. لو أن هذه مقـدمات زالزال عظيم هائل فأين يذهبون؟

لم يكن لهـذه المدينة سوى جـامع واحد كـبيـر يكتظ بالمصلين دائمًا.. خـرجت فى الفجر وصـليت، بينما لم يرفع الناس عيونهم عنى.. فانصرفت مسرعًا.

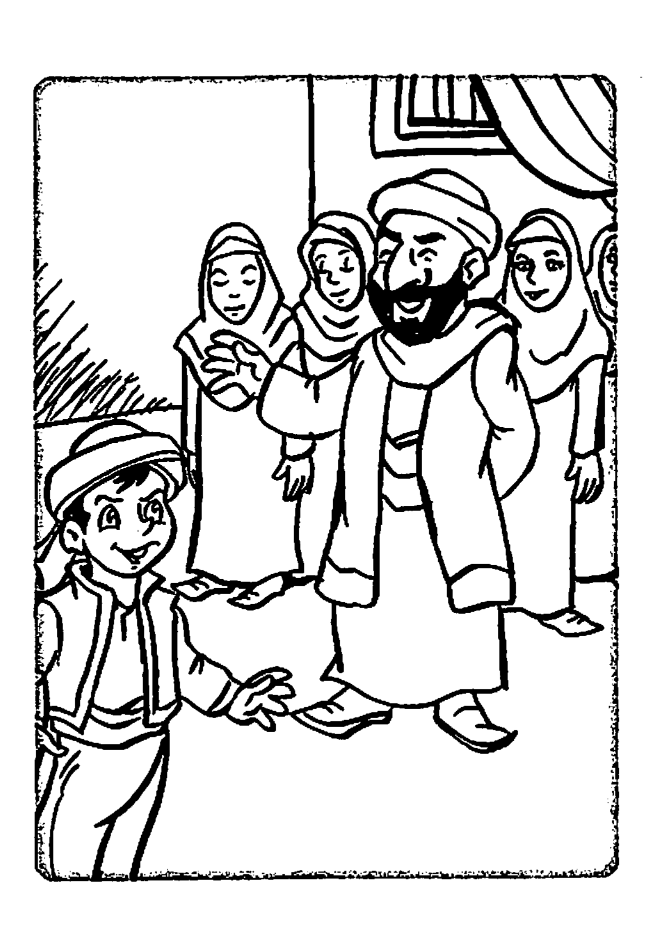
رجـعت إلى الفندق للذكـر والقـرآن، ثم عند بشـائر الصبح نمتُ مرة أخرى.. ثم قمتُ قبيل الظهر.. وجدت فطورى فى الغـرفـة.. تناولتـه وأنا عـازم على الإسـراع للحـاق بصـلاة الظهـر فى الجـامع ثم الجلوس إلى إمـام هؤلاء الناس فى المسجـد لأفهم ما يحدث. حاول كـثير من الرجال بعد الصلاة التودد لى وكانوا فى غاية اللطف والأدب، ودعانى أكـثر من عشرين رجـلاً لتناول الغداء والعشاء فى منزله.. ولأننى أعـرف السر الذى لا أعرف



له سراً كنت أعتذر بذوق وأدب.. إلى أن دعانى إمام الجامع نفسه بتناول الغداء معه سألته على الفور: هل لديك أولاد وبنات.

ابتسم وقال وعيناه تفهمانى جيداً:

لا تخف.. لابد أن تكون مقتنعًا بالأمر قبل أن تقبل عليه. هممت بشد شعر رأسى فتماسكت.. ولو أن رغبة بداخلى حذرتنى من المكوث يومًا آخر فى هذه المدينة، ومع ذلك أردت فقط ـ بدافع فضولى ـ أن أفهم فى بيت إمام الجامع وهو السيد عبد القادر.. قدم لنا الغداء ثلاث بنات محتشمات لا يخفين نظرات ملحة.. طلبت منه أن يغلق الباب فتعجب.. ولكنى أثرت الانفراد به:



- أخبرنى وإلا ما تناولت لقمة واحدة ياسيد عبدالقادر... ما الذى يحدث فى هذه المدينة؟.. لم أعد أعرف للنوم ولا للأكل طعمًا.

- قبل أى شئ أحب أن أبدى أعجابى بك.. ولولا أنك أقسمت بعدم بلوغك الحُلُم بعد ما صدَّقت.. ملامحك وقوة بنيانك وخبرتك العريضة تقول إنك شاب بالغ فتى.

سيدى.. بالله عليك.. أريد أن أفهم.

تنهد الرجل وكان يرفع الملعقة لفمه فأنزلها ولم يأكل وقال بحزن عميق:

- نحن مسلمون هنا والحمد لله.. ومدينتنا لها موارد ونعم أنعمها الله تعالى علينا جعلتنا لا نعرف الفقر.. بل نعيش كما رأيت فى رغد وترف.. والحمد لله.. فما

البلاء إذًا يا مؤمن؟.. البلاء العجيب أن مدينتنا منذ ما يقارب ربع قرن من الزمان وأرحام الأمهات لا تلد إلا البنات.. أما الأولاد فهم نادرون..

لاحظت هذا يا سيدى أول ما قدمتُ إلى هنا.. تابع يا سيدى.

تنهد الرجل ثانية ثم قال: أقرب بلد إلينا تبعد عنا آلاف الأميال.. نحن كأننا معزولون عن الدنيا.. كل يوم تلد النساء بنات.. والبنات يكبرن ويزيد عددهن.. بينما يقل عدد الشباب.. مع أن عدد الرجال عامة كبير.. لكن عدد البنات الآن ضعف عدد الرجال عمومًا كشباب وكهول. بدأت أدرك ما يرمى إليه الرجل.. وأصبح كل ما جرى لى فى المدينة ومنذ دخلتها قد زال عنه الغموض وبتُ مشفقا عليها:

- أخبرنى يا ولدى.. لمن نزوج بناتنا؟.. أصبحن كما رأيت تبحث الواحدة منهن بنفسها عن من يتزوجها.. وأصبحتُ مع كل المواعظ والدروس والخطب غير قادر على منعهن من التنافس فيما بينهن.. يتبرجن.. وتجد الواحدة منهن على حال يخالف حال المسلمة فى بلادكم.. ولم أعد أملك قدرة يا مؤمن على فعل شىء.. وها أنت كما رأيت.. لدىّ بنات لا أجد شبابا يتزوجهن. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.. هذا والله من علامات اقتراب الساعة... وهل هناك حلول أخرى لهذه المصيبة يا سيدى؟

فكِّر معى يا ولدى.. أسرة تبيت على جمر من الهموم.. عدد العوانس يا مؤمن تجاوز الحد ولا من مجيب..

- المجيب.. هو الله يا سيدى.

استمرت مناقشتنا بينما تناولنا الطعام، وهممت بالانصراف شاكراً له دعوته الطيبة، فتذكرت أمر الهزة التى تحدث للمدينة فسألته عنها بشغف:

- لا ندرى يا مؤمن عنها أى شىء... هذا زلزال يزورنا بين الحين والآخر..

- زلزال؟

- نعم.. لكن الناس من كثرة حدوثه لم يعودوا يهتمون له... مع... مع أننى بدأت أشعر أن قوته تزيد يومًا بعد يوم.. وهذا ما بات يقلقنى.

لم نجد ما نتحدث فيه بعد ذلك، سوى أن ودعته وانصرفت وفى قلبى هم كبير وفى عقلى سؤال أصبح يتردد ملحًا:

- هل نخشى فى هذه المدينة من زلزال الأرض أم من زلزال آخر قد يكون أشد فتكًا من الأول... زلزال العنوسة؟

رجعت إلى الفندق وقد تغيرت نظرتى للأمور كلها... هذه الأحوال لم تشغل بالى من قبل، فأنا بعدُ مازلت صغيراً ولم يشغل ذهنى التفكير فى أحوال الكبار البالغين... لكن بعدما سمعت ورأيت.. أجد أن هذه المشكلة تهم الجميع ويجب أن أنبه لها الناس كباراً أو صغاراً... ارتقيت فراشى واستلقيت وقد فارق النوم عينى، وبقيت شاخصًا للسقف أفكر وأفكر... لا أدرى متى نمت عندما استيقظت على أذان الفجر.... صليت فى المسجد وظل الناس على ما هم عليه حتى قام الإمام السيد عبد القادر وأخبرهم بأننى ضيف وغلام، فلما فهموا الأمر تركونى وشأنى... وفى غرفتى عدت أذكر الله ثم بدأت أقرأ القرآن كعادتى كل صباح... وأستغفر

الله العظيم.. كنت أقـرأ وذهنى غافل عمـا أقرأ انشـغالاً بهذه المشكلة، فلما تنبهت لنفسى ولمتها على التقصير إذا أنا بآية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣] قمت واقـفًا والمصـحف فى يدى... أليس هذا هوالحل؟ نعم.. هو الحل... سـبحـان الله.. لم يدع القــرآن مـشكلـة فى حـيــاة المسلمــين الأولين أو الآخرين إلا وأعطى الناس حلاً لها.

.. سبحان الله... أليس هذا حلاً؟... لماذا لا يُطبق هنا؟

عدت أخرج إلى المسجد فى هذه الساعة المبكرة ولحقت بالسيد عبد القادر قبل أن يعود لبيته واستبقيته فى المسجد:

- يا شيـخنا... أحل الإسلام لـلرجال الزواج بأكـثر من امرأة... فتنهد بحرقة وقال وهو ينظر للأرض:

- العُـرف فى مدينتـنا يا مؤمن لا يقـر بأكـثر من زوجـة للرجل الواحد.

- العُرف إذا تعارض مع الشرع فلا اعتراف به يا شيخنا...
- نساؤنا يا ولدى... كل امرأة فى مدينتنا لها صوت فى بيتها، وكل زوجة تضغط على زوجها وتهدده وتستحوذ عليه حتى لا يفعل ذلك... لذلك لا أقول من النادر... بل من المستحيل أن تجد رجلاً هنا له زوجتان.
- يا إلهى... هذا التشريع الإلهى يا سيدى إنما جعل فى الأصل لزمن وظروف كالتى تمر بها مدينتكم.
- أخبرنى رجل من أهل العلم وأنا شاب أن كل المجتمع الإسلامى وغير الإسلامى بعد القرن الخامس عشر الهجرى سيعانى هذه المشكلة، وسيقف المسلمون دون أن يفعلوا شيئًا... وسيسأل الله كل رجل عن نساء وبنات المسلمين.
- إذًا لماذا لا نطبق شرع الله... عليك كإمام مسجد أن تشرح للناس.

- فعلتها أكثر من مرة فأغْضَبتُ النساء.

- سبحان الله... هل كل امرأة تمتلك زوجها؟... لمن القوامة فى مدينتكم.. للرجل أم للمرأة؟

- نساؤنا لهن سطوة على الرجال... ورجالنا عاطفيون.

- والأمر الأعجب أن هذه مدينة متحضرة ثرية بالمال ويمكن للرجل أن يعول أكثر من زوجة.

كنت متحمسًا لحديثى ومنفعلاً به بينما لاحظت أن السيد عبد القادر يضع كلتا يديه على الأرض التى نجلس عليها ليتماسك... كان زلزالا قويًا هذه المرة، لكنى مع ذلك.. لم أشعر به:

- يبدو أن الزلزال سيهدم المدينة على من فيها.

- اذكر الله يا شيخنا فهو الحافظ من كل مصيبة... مع أنكم هنا.. تعطلون شرعه الذى أنزله لتحيوا به.

انتهت المناقشة بلا جدوى، وعدت إلى الفندق فوجدت السيدة الوقور قد وضعت فراشًا إضافيًا فى غرفتى فسألتها عن السبب.. فأخبرتنى أن الفندق مزدحم لقربه من مزار سياحى... وأن هناك نزيلاً غريبًا سيشاركنى الغرفة.

جاء بعد قليل شاب فتى بالغ يافع قوى... ما أدهشنى أنه عربى مثلى. رحبت به وكان هو الآخر فى دهشة مما يحدث فى المدينة.. فأخبرته بالموضوع كله، فضحك ثم حزن ثم أصبح واقعًا معى فى فخ المشكلة، ووجدت منه صدقًا فى محاولته التفكير لحل هذه القضية... وما أذهلنى أنه قد جاء إلى هذه المدينة ليستقر فيها بما لديه من خبرة فى التنقيب عن المعادن... وأنه سيحصل على رخصة بالبحث عن الذهب فى الصحراء المحيطة بالمدينة:

- كثير من الناس يا مؤمن يرون فى تعدد الزوجات عيبًا وقسوة.

- من علامات الساعة يا مهاب أن يكون عدد النساء أكبر عن عدد الرجال حتى يصبح للقيِّم الواحد أربعون امرأة... من سيعول هؤلاء النساء.

- أنا معك يا مؤمن... سألنى رجل ملحد ذات يوم عن حكمة تعدد الزوجات فى الإسلام، ثم ذكر مسألة ملك اليمين..

- وماذا أخبرته.

- فى الحقيقة وفى بادئ الأمر كنت لا أعرف... لكن أعرف جيداً أن الله عليم بعباده وحكيم فى شرعه وعدلٌ لا يظلم أحداً فهدانى للرد عليه.. وتصورت أن العالم فى زمن ما سيمر بحروب أو كوارث.. أو مصائب تحصد الرجال وتبقى النساء... فتصبح الشوارع مكتظة بنساء لا يجدن من ينفق عليهن... فتضطر الواحدة لبيع نفسها للشيطان من أجل لقمة العيش.. كذلك يكون من الأصوب ومن الأسلم لها

وللمجتمع أن يتولى أمرها رجل بالمعروف. وأيضًا هنالك أسباب كثيرة لحكمة تعدد الزوجات..

- بوركت يا مهاب... نعم الرد.... الإسلام راعى المجتمع الإسلامى حتى فى أحلك الظروف وقد وفر له ما يُبقى سلامته وتماسكه.

- يا مؤمن... أنا سأستقر فى هذه المدينة... ولابد أن أتزوج منها... ولن أقف مكتوف اليدين أمام مشكلتها الرهيبة.

- ماذا ستفعل إذًا؟!

- سأقوم بدورى فى تحصين الفتيات...

- ستتزوج بأكثر من امرأة؟... لن يرضى أحد هنا بذلك.

استمرت مناقشتنا وقتًا طويلاً... كان مُهاب الشاب السورى برغم حرصه على بناء مشروعه الكبير فى منجم الذهب لا يهمل مشكلة هذه المدينة ويرى أن عليه المساهمة فى حلها.

أمـا أنا فـفى اليـوم التـالى خرجـت من الفندق على ضجيج خفيف فى الشارع.. وفوجئت بأعداد كبيرة من الفتيـات يخرجن من كل صوب ويتجـمعن فى الشارع الكبيـر إلـى الميـدان الرئيـسى بالمدينة دون توقف. كن يتحركن ويسـرن فى آلية غريبة ومن الميـدان يتجهن إلى جـهـة لم أطرقـها من قـبل، غـرب المديـنة.. ثم إلى خارجها.

المشهد يشـبه جنازة عظيمة... آلاف الفـتيات يرتدين ملابس بيضاء تشـبه إلى حد كبير فـستان العُرس.. لكن يعلو الحزن وجوههن... إلى أين السـير وماذا يحدث... هل أعـود لأوقظ مـهـاب النـائم فى الفنـدق أم أتابع السـير... تَفـوّق فـضولى... ومـشـيت من بعيـد أرقب المشهد... النساء والرجال والأطفال يقفون فى الشرفات وعلى النواصى ويودعون بناتهم فى مشهد غريب.

خرجت الجموع الكبيرة من المدينة بحيث لم أتمكن من رؤية أول الجنازة المهيبة... تابعت الأمر من بعيد فلم أتمكن من مشاهدتهن جيداً... تسلقت جزءاً من جبل حتى تبين لى الأمر جليًا.

هناك جسر طويل وكبير عبارة عن لسان صخرى ناتئ عن جبل طوله كبير مع أنه معلق فى الهواء على ارتفاع كبير حتى أن الضباب يحجب المسافة الرهيبة أسفل منه... تصورت للحظة أنهن سيلقين بأنفسهن منتحرات من فوق هذا الجسر المخيف... لكن تجمعن حتى استوعبهن الجسر.. كنت خائفًا عليهن... لماذا يفعلن ذلك؟

وفجأة جلسن كلهن ماعدا واحدة فى مقدمة الجسر... لو مدت قدمها لسقطت فى قاع لا نهاية له. واجهت هذه القائدة أخواتها ثم انبعثت تدعو الله كى يفرج كربهن ويزيح عنهن شبح العنوسة الذى يهدد كل بيت فى القرية.



كانت كلماتها عفوية... لم تحمل وزنا ولا موسيقى... لكنها لم ترجو فى الحقيقة فنًا ولا أدبًا... أرادت فقط التعبير عن حزن وألم، أرادت أن أصرخ فى وجه أهل هذه القرية... نساء أنانيات ورجال لا يملكون قرارهم.. أرادت أن تظهر فداحة المشكلة.

كل ما كنت أخشاه فى تلك اللحظات الدامعة الحزينة أن تحدث الهزة الأرضية وهن على «جسر المدينة» الذى تتجمع عليه العوانس كل أسبوع للدعاء مع أن الزلزال يحدث فى أى وقت.

مرت الأيام تلو الأيام... بدأ مهاب يستشيرنى فى مشروعه وطلب منى أن أشاركه فى ذلك المشروع حتى أقرر الرحيل عن المدينة.

ذهبت كى أزور الشيخ عبد القادر فى بيته فوجدته على غير عادته شارد منهك الفكر..!!

ورحب بى وفى عينيه قلق:

- ماذا بك يا شيخنا... مالى أراك على غير عادتك.. هل هناك شىء يؤرقك؟

- نعم يا مؤمن لقد قررت أن أبدأ بنفسى ولا أدعو الناس لشىء لا أفعله أنا... سأتزوج يا مؤمن زوجة ثانية.. لكن زوجتى ترفض. تحدثت معه كثيراً ثم طلب منى محاولة إقناعها واستقبلتنى ببرود:

- سيترك بيته وبناته من أجل أخرى.

- سيدتى... مدينتكم فى محنة... أيعجبك هذا الكم من العوانس فى مدينتكم.

- لا.. لا يعجبنى... لكن ما من زوجة ترضى بذلك لنفسها.

- وبناتك... لديك ثلاث بنات لن يتزوجن.

- وما شأن الأمر بناتى.

- لو أن كل زوجة تشعر بالمسئولية تجاه المجتمع الذى تحيا فيه كما تشعر بالغيرة والأنانية... لو أنها سمحت بذلك... وتزوج زوجها من فتاة لا تجد زوجًا... فسيأتى أيضًا من يتزوج ابنتها أو أختها أو ابنة خالها العانس.. أليس كذلك...

- مؤمن... أنت صغير ولا تدرك الأمر.

- شَرَّع الله لنا هذا يا سيدتى...

- إن فى هذا الشرع النجاة دائمًا من المصائب التى تحيق بنا... فى الإسلام نجد الحل يا سيدتى... الإسلام هو الحل..

- غلبتنى يا مؤمن بكلامك... أنا موافقة من أجل بناتى.. عسى إن سمحت للشيخ عبد القادر بذلك أن يأتى آخرون يتزوجون بناتى.

- جزاك الله خيراً عن أهل المدينة يا سيدتى... هكذا يكون الحل فى الإسلام... الحل يكون بتفعيل وحسن استخدام المسلمين لتعاليمه وشرائعه المتينة.. أستأذنك... سأذهب لأخبر السيد عبد القادر بموافقتك وأنك لن تندمى بعد ذلك أبداً.

تمنيت لو كانت المسألة هينة مع كل نساء المدينة... لكن الأمور أصعب من قدرتى على العمل وحدى.

قررت أن أذهب لمهاب بعد أن أخبرت السيد عبد القادر بموافقة زوجته، ولم يصدقنى فى بادئ الأمر... وعندما تأكد مما أخبرته به أسرع وذهب إلى زوجته وقبل رأسها وشكرها على حسن امتثالها لأمر الله.

وبعد عدة أيام تم زواجه الثانى من فتاة صالحة ذات دين من فتيات المدينة... وانطلقت الزغاريد من بيت كان يعشش عليه الحزن... وتكون بيت مسلم جديد يفاخر بنسل النبى ﷺ يوم القيامة الأمم كلها:

- مهاب... كيف حال مشروعك... هل بدأت الحفر فى المنجم.

- لا.... أنتظر أن تأتى معى... أنت فى الحقيقة على دراية بالأرض وطبيعتها أكثر منى... والمكان الذى ستشير إليه سأفتح منه بابًا للمنجم على الفور.

- هناك أمل يا مهاب... الليلة تزوج السيد عبد القادر من فتاة تناسبه كانت قد فقدت الأمل فى الزواج.

- رائع... بارك الله فيك يا مؤمن... قلبى يحدثنى أن لك يدًا فى هذا الحدث السعيد.

- أريد أن تساعدنى يا مهاب... تغيير تقاليد المجتمع ليس بالأمر الهين.

- أنا معك... فقط ساعدنى أنت أولاً... ثم إذا افتتحت المنجم يمكننى التفرغ قليلاً لمساعدتك.

- وهو كذلك.

في الصباح الباكر خرجتُ مع مهاب من المدينة - كانت دراسته للمكان ترشده أن يبحث عن الذهب في بطن أحد الجبال العتيدة.. احتاجني فقط كي أرشده لأسهل مكان يمكنه الحفر فيه... ولكن ليس هذا ما كان يشغلني... بل الطريق الذي لم أطرقه بعد في شرق المدينة... حيث خرجنا منها وتحركنا في صحراء يعلو سماءها ضباب دائم... ولأنني لا أفقد الاتجاهات بسهولة.. فقد أصبحت على يقين أنني ومهاب نمشي تحت جسر المدينة أو قريبًا منه... وفوجئت بصدع رهيب يشق الأرض كأنه يشطرها نصفين:

- في بداية الأمر دهشت لهذا الصدع يا مؤمن... لكنني اعتدت عليه.

- صدع رهيب وقاعه عميق مظلم...

- أتعرف يا مؤمن أن هذا الصدع من أهم، بل هو السبب الوحيد فى الهزات الأرضية التى تحدث للمدينة.

- يا إلهى... أحق ما تقولُ؟

وكلما حدثت الهزات ازداد طول الصدع... وقد يحدث زلزالاً كبيراً.

الصدع هو شق فى الأرض.. أو أحب أن أسميه شرخ الأرض... فعندما تمسك ببسكوتة فتكسرها من النصف بغير أن ينفصل النصفان فهو الشرخ والتصدع...

ذهبت مع مهاب وحددنا مكان بدء حفر المنجم وصلينا ركعتين قضاء الحاجة حتى ينجح الأمر... وبدأ العمال فى الحفر حتى غابت الشمس.. عدنا بالليل للفندق، وما إن جلس كل واحد فوق فراشه حتى شعرنا بهزة عنيفة... أكبر من الهزات السابقة فى قوتها... ثم ما لَبِثتَ أن هدأت.

في عـمق الليل قـمنا على هزة أخـرى كـانت تحـرك السرير من تحت كل واحد منا واستـمرت وقتًا ملحوظًا، وقال مهاب وهو يغالب النوم:

- آخر ليلة لي في الفندق.. بل في المدينة.

- لماذا يا مهاب بالله عليك؟

- هذه الهزات نذير سوء وقلبي لا يحدثني بخير.

لم أتمكن من النوم مرة أخرى حـتى الصباح... وبعد صلاة الظهر فـي المسجد أذن لي عبد القـادر في الحديث إلى الناس وتحذيرهم:

- إخواني... الزلزال الكبـير قادم لا مـحالة... وأرى أن نتخـذ الحيطة له وأن نعمل قـدر استطاعـتنا على الحد من خسائره.. وخصوصًا الأرواح. شعر الناس بالخطر لأن الهزات باتـت أعنف... وقررنا في النهـاية إخراج الناس من المدينة.

وكان على الرجال التعاون فى إخراج النساء والأطفال إلى الصحراء فى العراء...

وعند العصر حدث الأمر الرهيب..

كانت هزة أرضية رهيبة... استمرت وقتًا طويلاً.. والمدينة تعج بالرجال دون النساء... الرج والرجف عنيف قاتل.

كنت مع مهاب نشرف على الأعمال فى المنجم... وصعدنا فوق الجبل نشاهد المدينة الجميلة وهى تتصدع وتهتز وتنهار مبانيها... كان الرجال يفرون منها قدر المستطاع.

شعرنا بالزلزال ونحن نبتعد عن المدينة مسافة كبيرة ونسمع صراخ النساء والأطفال يبكون مدينتهم ورجالهم الأشداء.

لم أتمكن من عمل شىء فى تلك اللحظة، سوى أن أشاهد ما يحدث... كأن المدينة على نسيج غربال كبير..

غـربال يهتـز بتـوتر حاد فـيهـدم هيـاكل لمدينة بنيت من الرمل على شاطئ البحر.

كل شيء يُنسف.. تسـقط السـقـوف.. تتـحطم الأعـمدة.. تنهـار الكبـارى وتهلك الأزهار... سـقطت الشرفـات والجدران على آلاف من الرجـال الذين كانوا يحاولون الهرب من القدر المحتوم.

أفلح العـديد منهم فى تلافى الخطر... أصـعب شىء أن تقف على أرض غير ثابتة.. فهذا هو الخطر بعينه:

- مؤمن... ما العمل؟
- لا أدرى يا مهاب لا أدرى.
- هل نقف هكذا نتفرج على المدينة وهى تنهار.
- لقد حـذرناهم يا مهاب... لكنهم تلكأوا حـتى حدث الزلزال.
- يجب أن نفعل شيئًا.

- ماذا يمكننا فعله يا مهاب؟... إنه جزاء منع تمكين شرع الله فى الأرض.

- هل تقصد..؟

- نعم أقصد... الجبل يهتز بنا... سيتحطم.

نزلنا نجرى من الجبل وكل الأرض أصبحت تهتز... تسكت لحظة وتهدأ ثم تعاود الرج والتدمير.. هناك قوى تريد إهلاك المدينة كلها.

جريت مع مهاب نحو الناجين الذين من حرصهم على إنقاذ ذويهم أرادوا الرجوع إليها.. منعناهم.. إذ أن الزلزال كان فظيعًا.

عيون الماء تنفجر... أطلال المدينة مازالت تهتز يمينًا ويسارًا بقوة عجيبة.

نظرت للصدع من بعيد فإذا به يزداد... وإذا الارتجاج عنده أقوى من أى مكان آخر:

- مهاب... أنت على حق يا مهاب... الصدع هو السبب في الزلزال.

- طالما هو موجود.. فلن تهدأ الزلازل أبداً عن زيارة هؤلاء التعساء.

- بعد الزلزال.. وإذا كتب الله لنا النجاة ينبغي أن نردم هذا الصدع.

- هل تهذي يا مؤمن؟... هذا أمر مستحيل يا صديقي...

· العمق رهيب والطول واسع.

كنا نتحدث بينما الصوت يرتج في حلقينا... لم نجد شيئًا نخدع به أنفسنا ليصرفنا عن النظر إلى الهلاك والدمار بينما يحدث أمام أعين الجميع.

نظرت خلفي لهؤلاء النسوة... وليس معهن إلا عدد قليل من الشباب والرجال.. وقلت في نفسي مَنْ لهؤلاء إلا الله.

وتذكــرت أن الله تعـالى يـدبر قـبل أن يـبلى... هذا الزلزال... وسـكن إلى وقت طويـل... حـتـى تشـجع الناس على الحركة والقيام نحو المدينة المنكوبة.

أما أنا ومـهاب فـآثرنا أن نذهب ناحيـة الصدع لنرى هول الموقف... كـان الصدع أوسع.. وألقى مـهاب فـيه حجـراً فبقـينا ننتظر حتى نسـمع صوت ارتطامـه بالقاع فنحدد العمق بالتقريب... لكننا لم نسمع أى شىء.. لا ارتطام ولا غيره... وأدركنا أن العمق قد يصل إلى باطن الأرض خاصة وأن حرارة الصدع كانت أعلى بقليل من الجو المحيط به:

- تمنيـت لو منعـنا هذا الصــدع من تحــريك الأرض بقشرتها هنا.

- وأنا أيضًـا أتمنى ذلك يـا مـهـاب... لكنك أخـبـرتنى باستحالة ذلك.



- أرى... أرى لو ألقينا شيئًا يمكن حشره بين جنبى الصدع لمنعنا حركته بدون أن نردمه... لأن ردمه فى الأصل مستحيل.

- شىء نحشره يا مهاب... أنت فى حاجة إلى جبل.

ساد الصمت بيننا ونظرنا نحو المدينة ورأينا الناجين وهم يطوفون كالمجانين بها... كلٌ حول بيته الذى عاد ردمًا من تراب وحجارة. كانوا ينوحون ويبكون وكأن المدينة قد وقعت فى الأصل على رءوسهن. لكننى مع ذلك كنت أفكر فى أمر الصدع.

أخذت عبارتى الأخيرة تتردد بشكل مستمر وملح فى عقلى حتى عرفت أننى أبحث عن حل... أنت فى حاجة إلى جبل... أنت فى حاجة إلى جبل.

شعرت أن الحل بين يدى ولا أراه... شىء ما يناسبنى.. لكن ما هو.. ما هو.. اهدنى يا ربى...

فوجئت بنفسى أنظر إلى السماء حيث الضباب الذى يحجب عنى الجسر الرهيب.. جسر المدينة... كان يبدون أسفل كشبح لا يبين.. صرخت فى مهاب:

- مهاب... مهاب... وجدتها يا مهاب...

- ماذا؟

- الجبل الذى سنحشره فى الصدع فلا يسمح له بإثارة هز القشرة الأرضية... إنه الجسر..

- الجسر؟... أى جسر.

- جسر المدينة يا مهاب... يجب أن نكسره... فيسقط فى الصدع.

- أرنى هذا الجسر يا مؤمن... هيا بنا.

صعدت معه نحو المدينة المنكوبة ومررنا وسط الحرائق والدخان والغبار وبين أطلال وأسمال... حتى وصلنا إلى أصل الجسر وشهق مهاب:

- معك حق يا مؤمن... إنه لسان طويل... ولو سقط لوقع منحشرًا فى الصدع فأوقف الخلل فى الأرض.

- أرأيت؟!... كيف نكسره إذًا.

- لا أدرى... إنه كبير ضخم يحتاج إلى آلاف العمال وقد لا ينكسر.

وقفنا نفكر أنا وهو... وكأن على رأسينا الطير... ثم لاحت لى فكرة مجنونة:

- مهاب... لدىّ من يكسر هذا الجسر.

- دائمًا أتوقع منك المفاجآت يا مؤمن... أين وكيف.

- تعال معى...

كان أهل المدينة وأكثرهم النساء والفتيات فى حاجة إلى من يرشدهم ويضع لهم علاجًا لجرحهم العميق.

ذهبنا نحو المسجد... فوجدناه قد تحطم تمامًا ولم يتبق منه إلا القبلة والمنبر... صعدت إلى المنبر وناديت مع مهاب على الناس فتجمعوا شيئًا فشيئًا حتى أصبح أمامى جمع عظيم:

- يا أهل المدينة المنكوبة... نحمد الله تعالى أن نجاكم ونجانا من هذا البلاء ونترحم على موتانا... لابد من تنظيم العمل وتحديد الهدف... العمل على إعادة بناء المدينة وتحكيم شرع الله فيها والهدف هو حسنة الله تعالى فى الدنيا والآخرة.... علينا أن ندفن موتانا.. شهداء هذه الكارثة... وبعد ذلك سنجتمع مرة أخرى ونرسم خطة حياة جديدة... أسرعنا وجمعنا الجثث وأقمنا جنازة وصلينا على الشهداء ثم دفناهم... وجاء الليل البهيم... لا ينير سماء المدينة المظلم سوى الحرائق المندلعة هنا وهناك... تجمع الكل حولى مرة أخرى ووقف مهاب بجانبى والرياح تهب من كل صوب:

- أيها الناس... لن يقر لهذه المدينة قرار إلا بكسر جسر الحسرات ونحتاج إلى قوتكم معنا... هذا الجسر سيمنع الزلازل والهزات. رأيت الفتيات أشد حماسة من الجميع... فعولت على ذلك:

- أعداد النساء أكثر بكثير من أعداد الرجال... ولا يعقل أن نترك هؤلاء النساء بلا بيت أو رجل يعولهن.. كذلك علينا تطبيق شرع الله فى تعدد الزوجات.

وكان الناس قد عرفوا السر فى الكارثة.. فلم يعترض أحد.. بل ان الفتيات حملن المعاول وكن أول من ذهب للجسر، وبرغبة كاسحة.. تكتلن عليه حتى فوجئ الجميع به ينكسر كقطعة من السكر... وسقط محشوراً فى أصل الصدع فتأكد للجميع وداع الزلزال للأبد.

لم أترك المدينة... بل ساهمت فى التعمير وإعادة البناء... ولما مضت أيام الحداد ورُممت البيوت وأغلقت عليها أبويها مرة أخرى.. اجتمع أهل المدينة فى عُرس جماعى سعيد ومهيب فى ذات الوقت... قرر المسلمون فيها ألا يجعلوا فتاة أو امرأة بلا بعل يحميها... وعلمت كل فتاة وامرأة أن فى التعدد فائدة لها ولأولادها ولأخواتها البنات ولمجتمعها ولأمتها المسلمة كلها.. وإلا فما سمح الله تعالى به ورغبنا فيه رسول الله ﷺ.

أصبح للرجل فى المدينة زوجتان وثلاث وأربع... ولم تعد فى المدينة كلها فتاة واحدة لا تجد زوجًا.

عمل الرجال كلهم مع مهاب فى منجم الذهب واستخرجوا ذهبًا بارك الله لهم فيه... وعادت المدينة أبهى من سابقتها وعاشت من جديد فى ثراء ونعيم.. وتزوج مهاب من امرأتين وكلما تعب من الغيرة بينهما عاد لسنة الرسول ﷺ وتعلم منها كيف يحيا مع أكثر من زوجة فى وئام وسلام وسعاد... وبدأ أمر عجيب، أن الأرحام عادت تقذف المدينة بالأولاد من الذكور.. وأصبح الأمر طبيعيًا.. خرجت من المدينة بعد أن قضيت فيها أكبر فترة قضيتها فى مغامرة من قبل.. ولم يشأ أحد أن أخرج منها.. وودعونى وهم يذرفون الدموع... أما مهاب فأعطانى جوهرة كانت عزيزة لديه تذكارًا من هذه المدينة.

تمت بحمد الله تعالى

❊❊❊